قصة قصيرة

ومن يحجب الشمس؟!!

بقلم: أحمد المزاري

«بالأمسِ كانت هناك شجرةٌ .. عجوزٌ .. جَفَّ ضَرْعُهَا .. لكنَّها بقيت حَيَّة.. كانت تتوسَّطُ ميداناً ما، نبتتْ حوله «مصارف» صغيرة .. أخذتْ تكبر وتكبر، حتى حجبتْ عنها الشمس .. لكنها بقيت حَيّة..
.. عندئذٍ .. تآمرت «مصارف» عليها .. واجْتَثَّتْهَا ...»...

***

مَرَّتْ بِضْعُ لحظاتٍ، قبل أن يشعر بِمَنْ يلكُزُهُ في ظهره، ويدفعهُ للأمام .. نَحَّى يده التي كان يحمي بظهرها عينيه من ضوءِ الشمسِ، ثمَّ استدار ليرى بقايا ابتسامةٍ جامدةٍ، ما زالت تلوحُ على قَسَمَاتِ ذلك الجنديِّ، الذي كان يقفُ كالصنم، أمام البوابةِ الرئيسيَّةِ لذلك الصرح الشاهقِ، المشَيَّدِ بكُتَلٍ ضخمةٍ من الأحجارِ الصلدة، التي تكسو بعضَ أجزائها الطحالبُ الخضراء، وتعلو بعضها الآخَرَ صفرةُ الرطوبة .. تكلَّفَ ابتسامةً واهيةً، رَدّاً على بقايا تلك التي بدأت في التآكُلِ من تقاطيع الجندي .. ثم: -

- معذرةً .. فأنت تَعْلَمُ أنني..
- نعم أعلم .. وأرجو ألا تعودَ لمثلها..
- حتى أنت؟ .. كنت أظنُّ أنَّك ..
- ظُنَّ كما تشاء .. والآنْ ابتعدْ وإلاَّ ..

.. انقطع الحديث عند هذا الحدِّ .. تراجع الجندي عدة خطوات تحركتها قدماه أثناءالحوار .. كان هناك مَنْ يقتربُ من البَّوابة - قادماً من الداخل- وكانت السيَّارةُ الفارهَةُ الواقفةُ إلى جوارِ الرّصيف دليلاً على .. عُلُوِّ شأنه ..

رفع الجندي سلاحه بتشنُّج، بينما كان حذاؤه القويُّ، يَدُكُّ هذه البقعةَ من الأرض، التي اعتادتْ تلك الزلزلة المجنونة، من ذلك الجنديِّ وأمثالهِ الذين يتبادل وإياهم نَوْبَاتِ الحراسة...

.. خرج صاحبُ الشأنِ الكبير، دون أن يُعْنَى بالردِّ على تحيَّةِ الجندي، التي كانت تُحَتِّمُهَا القوانينُ العسكرية، ودون أن يشعر بتلك النظراتِ الناريَّة، التي كانت تقذفه بها عينا صاحبنا، الذي خرج هو الآخر -منذ قليلٍ- من نفسِ البوَّابة، ولكنْ .. دون أن يجد في انتظاره سيارةً طويلةً أو قصيرة، أو أحداً يحيِّيه تحيَّةً عسكريَّةً أو مدنيَّةً .. إنَّ ذلك الوجهَ المشرق، الذي تنطقُ قسماتهُ بالطيبةِ، يؤكِّدُ زَيْفَ الثقةِ بشخصٍ ما، عند رؤيته للمرَّةِ الأولى .. إنَّ ذلك الوجْهَ الأمْلَسَ اللامع، الذي بدأ يختفي خلف الزجاجِ السميكِ المعتم، كان مصدر رعبٍ وفزعٍ، لكلِّ أولئك الذين استضافوا يوماً، أو ما زالوا يستضيفون جدرانَ ذلك الصَرحِ الشامخ، الذي كُتِبَ على واجهته العريضة «دارُ الإصلاحِ والتقويم»..

لقد كان صالحاً وقوّاماً، قبل أن تطأ قدماه عتبةَ هذه الدار، أما الآن .. فإنه بحاجةٍ إلى أن يستعيد ثقته بالمعاني والمثُل التي مات منها في صدره الكثيرُ والكثير، ويحتاج إلى زمنٍ، لا يدري هل يطولُ أم يقصر، لكي تعاودَ النبضَ من جديد..

***

.. كانت تقفُ وحيدة .. تودِّعُ آخر شعاعٍ انسابَ إليها من خلالِ الفروجِ التي خَلَّفَتْها المباني الشاهقة فيما بينها .. كانت تقف إلى جوارها -منذ قليلٍ- تلك الزوجةُ الشابَّةُ، التي ألجأتها الأقدارُ إلى القيامِ بعملِ زوجها الشابِّ، الذي مضى على غيابه الآن، قُرابَةُ الثلاثةِ الأعوام، دون أن تراه ولو لبرهةٍ خاطفة .. بيد أنَّ تلك الابتسامة الشاحبةَ -بعض الشيء- على وجه الزوجة، وكذا الثياب البيضاء التي ترتديها معظم الوقتِ، تؤكِّدَانِ لها أنَّهُ ما يزال حَيّاً يُرْزَقُ.. ولكنْ .. أين؟ .. كم تَوَدُّ أن تراهُ قبل أن تودِّعَ الحياة .. لقد عَلِمَتْ بِقُرْبِ نهايتها، من خلالِ حديثٍ دارَ بين اثنينِ من المارَّةِ، كانا يسيران منذ بضعةِ أيامٍ إلى جوارها .. كان أحدهما يشيرُ أثناء حديثه، إلى خبرٍ منشورٍ في ركنٍ مهملٍ من صحيفةِ ذلك اليومِ، ثم يشيرُ إليها دون أن يُعْنَى بالنظر تجاهها..

كانت فيما مضى جميلةً يانعة، تنعكسُ صورتُها على الأعينِ مصحوبة بابتسامةٍ فرحة، وعلى الشفاهِ في شهقةِ إعجابٍ .. كم كان يحلو لعُشَّاقِ الربيع آنَهَا أن يزوروها ضحىً وليلاً، ويلهو عند أقدامها كما يلهو الصغار .. لقد كان الواقع المرُّ يتحوَّلُ بين أحضانها إلى حلم بديع، لا يودُّ أحدهم أن يفارقه.. كان نصيبُها من السماء ممتدّاً حتى نهاية الأفق، أما اليوم.. فقد انحصر فيما يعلو رأسَهَا من فراغ .. باتت الآن تلهثُ لاستكمال شهيقها، وتلهثُ لإخراجه .. لم يعد هناك من يهتمُّ بها.. يرعاها.. ولم يبق لها من الطعام أو الشراب سوى الماء.. الماء فقط، تمدُّ أصابعها.. تنبشُ بأظافرها هنا وهناك، تبحثُ عن قَطْرَةٍ خَلَّفَهَا لها الطينُ، بعد أن نال أكثر من حاجته، وتنجحُ مرَّةً وتخفقُ مَرَّاتٍ .. لذا

لم يكن عجيباً أن يشحبَ وجهُهَا .. تَجفَّ عروقها وتنفر بارية على بَدَنِهَا الذي كان يوماً ما غَضَّاً فَتِيَّاً، ولم يكنْ مُستَغرباً أنْ تلدَ أزهاراً ميتة..

***

أفاق من شروده .. مشى الهوينىٰ .. يُخيَّلُ لمنْ يراه أنَّه يَتَحَسَّسُ الأرض .. يختبر ثباتها تحت قدميه .. لم تَعُد هناك أسوارٌ تَمْنَعُهُ من الخَطوِ إلى الأمام أو الهرولة،أو ركوبِ أيَّةِ حَافِلَةٍ تُقِلُّهُ إلى البيت أو قريباً منه.. بَيْدَ أنَّهُ آثَرَ السير.. يريدُ أن يملأ عينيه بكلِّ شيءٍ غَابَ عنه طوال تلك الفترةِ، التي بَدَتْ- في بعض الأحيان - وكأنها لن تنتهي، يريدُ أن يتطلَّع إلى الشمسِ بين لحظةٍ وأخرى، كي يُعَوِّضَ بعض الذي فاته منها.. يَشْعُرُ أنها غيرُ تلك التي كان ينظر إليها من خلال القضبان .. كانت الأخرى حزينةً كاسفةً، كأنها سجينة .. أما هذه .. فمشرقةٌ باسمة، تملأُ السماء وتَبْسُطُ ثوبها المضيء على الأرض .. كل الأرض، وتستأثرُ بنصف ساعات اليوم... ما أجمل هٰذا الضجيج الذي يطرق سمعه الآن .. وما أعذبَ الأنغامِ التي تعزفها السيَّاراتُ عند المعابر والتقاطعات، بل ما أطيبَ العبق المنبعث من جَنَبَاتِ هذا الزقاقِ المظلم الضيقِ، الذي لا يجفُّ أبداً، ما دامت تقيمُ في أحد بيوته المتهالكة .. أُسرتُهُ الحبيبة..

.. كمْ سيكونُ وَقْعُ المفاجأة رائعاً .. ومُؤثِّراً .. لسوف تنطوي عندئذٍ كُلُّ آلام الأيامِ ومعاناةِ الليالي الطوال، وكأنَّها لم تكن.. لَسوفَ تولدُ الحياة من جديدٍ بين أركانِ هذا البيتِ القديم، الذي غادَرَهُ لبعضِ الوقتِ، وها هو ذا يعودُ إليه.. ما أجملَ الجنَّةَ حينَ يتقاسمُ أَرْبَعَتُهُمْ ثمارها.. هو وزوجه الحبيبة وفلذتا كبده المعشوقتان عائشةُ وآمنة.. لاحَتْ على وجهه ابتسامةٌ ساخرة.. كم كان إسماهما مَصدَرَ ضيقٍ المحقِّق .. وحنقه:

- إذنْ فأنتَ تُصِرُّ على أنْ تأتي الدنيا بعائشةَ وآمنةَ أخريين؟..
- وماذا في هذا؟ .. أهناك حَجْرٌ على الأسماء؟..
- لا .. ولكن.. ألم تجدْ من الأسماءِ غير هذين؟..
- تَقْصِدُ أنه كان من الأفضل أنْ أُسَمِّيَهُمَا جيجي وفيفي مثلاً؟..
- أو صافيناز وشاهيناز.. هناك أيضاً لولا وبولا .. ما رأيك؟..
- وأين إذنْ تراثنا الزاخرُ بالأسماءِ ذات المعاني؟..
- ها أنتَ ذا تعودُ إلى جنونك .. وتُضَيِّقُ الدائرةَ على نفسك..
- هل يعني هذا أن الأسماء جريمة؟..
- نعم.. حين تكون عائشةُ وآمنةُ ابنتي سيفِ الإسلام..
- لم أكن أُدْرِكُ شيئاً يوم أنْ سَمَّاني أبي بهذا الإسم..
- تستطيعُ تغييره في مكتب السِّجلِّ المدنيِّ إنْ شِئْت..
- ولماذا أغيره؟..
- لكي تعيش في أمان..
- وماذا عن كل حامل لاسم حسام الدين؟..
- لا شيء عليه.. فليس لِوَقْعِهِ من الاستفزاز ما لاسمك...

.. بَلَغَ البيتَ أخيراً .. تَخَطَّى بِضْعَ الدرَجاتِ المتآكلة بسرعةِ البرق.. طرقَ البابَ الضعيفَ بقوَّةٍ كادتْ أنْ تحطمه .. وقبل أن يستكملَ البابُ أَنِينَهُ المعهود، كان يعانقُ زوجه ويحتضنُ طفلتيه اللتين تَشَبَّثَتا بساقيه.. اختلطت صيحاتُ الفرح بِشَلالٍ من الدموعِ كانَ له على لِسَانِهِ طعمٌ أعذبُ من دموع الحزن التي كان يَتَجَرَّعُها وحيداً من قبل.. ومن خلالِ الكلماتِ اللاهثة التي تدافعتْ من فم زوجه، التي لم تَصْحُ بَعْدُ من شدَّةِ المفاجأة، عَلِمَ أنَّ عائشةَ بدأتْ أولى خطواتها إلى المدرسة، وما يعنيهِ ذلك من أعباءَ جديدةٍ، تُضَافُ إلى أعبائه السابقة، بيد أنها -زَوْجَهُ - لم تدركْ أنَّ ذلك النبأ بالذات، قد تَحَوَّلَ في عينِ اللحظةِ التي طَرَقَ فيها سمعه، إلى معنى جديدٍ.. أيقظَ بَقِيَّةَ المعاني التي نامت في صدره طوال تلك السنوات، وأحيا الذي مات فيها.. إنَّ الذي ماتَ حَقَّاً، هو تلك السنواتُ التي مضت وانقضت، دون أثرٍ يُذكرُ .. اللهم إلا بعض الأخاديدِ على وجهه، وبضع شعراتٍ بيضٍ في مُقدَّم رأسه.. وما أهْوَنَهُ من أثر..

***

.. لم تتمالكْ نفسها من الفرح.. وَدَّتْ لو تُهَرْوِلُ إليه معانقةً- حين رأته قادماً نحوها من أحد المنعطفات- لكنه كفاها المَشَقَّةَ، وجرى إليها معانقاً ومُقَبِّلاً.. ثم ارتَدَّ إلى الوراء بِضْعَ خطوات لكي يملأ عينيه منها.. يبدو أنها قد نَحَتْ من عمرها هي الأخرى، تلك السنواتِ الأخيرة، وإنْ لم تَسْلَمْ -مثله- من آثارها.. كان يُحِسُّ بشَوْقٍ عجيب تجاه هذه الشجرةِ .. العجوز .. كانتْ تُذَكِّرُهُ- كُلَّمَا تَطَلَّعَ إليها- بأُمِّهِ الحبيبة .. تلك التي كافحت في صمتٍ، وصبرتْ وثابرتْ دون تَذَمُّرٍ.. ثم ماتت راضيةً عن حياتها - منذ بضع سنوات- أما أبوه.. فَرَحَلَ قبل ذلك بكثير.. لم يكن يذكُرُ عنه إلا بِضْعَ كلماتٍ، كانت أمه تُكَرِّرُها على مسامعه، كلما عَنَّ له أن يسألها عنه.. «إنَّ أبَاكَ يا بُنَيَّ كان رجلاً في بيته.. رجلاً في عمله.. رجلاً في تَعَامُلِهِ.. يفعلُ ما يراه صواباً، حتى وإن كان فيه حَتْفُهُ.. ويُعَانِدُ الناسَ .. كلَّ الناسِ، ما دام الحقُّ في جانبه..» ثم تختتمُ مقولتها الأثيرةَ بثلاثِ كلماتٍ «لَيْتَكَ تَصِيرُ مِثْلَهُ...»...

... ها هي ذي الشجرة.. تَتَطَلَّعُ إليه بإعجاب..، وترى فيه أباهُ الذي كان يقفُ من قبلُ في نفسِ المكانِ، ويديرُ عَيْنَ الحانوتِ الخَشَبِيِّ، الذي يستندُ إلى جذعها مُنْذُ زمانٍ طويل.. ها هو ذا جيلٌ ثابتٌ على مَرِّ السنين- رغم تَغَيُّرِ الأحوال- لا تزعزعهُ الزلازل، ولا تنالُ منه المحن.. إنَّها الآن قَانِعَةٌ بما رأت .. راضيةٌ بما ينتظرها أكْثَرَ من أيِّ يومٍ مضى...

***

عادت الحياةُ إلى سابقِ عَهْدِهَا من الكفاحِ والمثابرة، وبدأ العَدُّ التنازليُّ لِحَمْلِ زوجه التي بَدَتْ سعيدةً بهذا الطارقِ الجديد، مُسْتَعِدَّةً لاستقباله حين يأزف الميعاد.. أما هو فكان أكْثَرَ سعادةً بما يعنيه ذلك الحدث بالنسبة إليه.. إنَّ حَمْلَ زوجه يعني تَجَدُّدَ الحياة في شرايينه وأوردته، وقُدْرَتِهِ على العطاءِ بعد

ليس هناك حجر على الأسماء لكن في زماننا حتى الأسماء عليها كلام

قصة قصيرة

فترةٍ كمون، لم تقضِ -رغم طولها- على حَيَويَّةِ البذرة الصالحة.. لكنْ.. كيفَ يَعِنُّ للحياةِ أنْ تمضيَ على وتيرةٍ واحدةٍ دونَ مُنَغِّصات؟.. كان لا بدَّ لشيءٍ بغيضٍ أن يلوحَ في الأفقِ .. يُعَكِّرَ صَفْوَ السعادةِ التي ترفرفُ حولَ أسرةٍ، لم يستطعْ الفقرُ أنْ ينالَ شيئاً ما من البَسْمَةِ التي تقابِلُهُ بها صباحَ مساء..

وكان.. أنْ طَالَبَهُ بعضهم في أحدِ الأيّام، بِنَقْلِ حَانُوْتِهِ الخشبيِّ إلى مكانٍ آخر، بدَعْوَى أنَّهُ يُشَوِّهُ المكان الذي يفكِّرون في استثمارِهِ سياحيّاً وقَوْمِيّاً.. لم يجد بُدّاً من الذهابِ إلى المسؤولين، الذين منحوه- كما منحوا أباه من قبلُ - تصريحاً بإقامةِ الحانوتِ في هذا المكان..

والتقى هناك «بالروتين» ذي العوينات السميكةِ، الذي قاطعه بحزم:-

- إنَّ تصاريحَ إقامَةِ الحوانيتِ موقوفةٌ هذه الأيام يا .. محترم..
- إنني أحملُ تصريحاً .. أريدُ فقط تغييرَ المكان..
- إنَّ تغيير المكان يعني تصريحاً جديداً.. والتصاريحُ موقوفةٌ هذه الأيام..
- فماذا أفعل إذا كنتُ مُهَدَّداً بالطردِ من مكاني القديم، بِدَعْوَى أنَّ الحانوتَ يشوه الـ..
- هذه الـ «ماذا» يُجيبُكَ عنها مَنْ يُهَدِّدُوْنَكَ بالطردِ لا نحن..

***

.. انهالت الفؤوس عليها من كل جانب، ثم اشتدَّتْ حِدَّتُها في بعض الجوانب.. وخَفَّتْ في جانبٍ واحدٍ فقط.. هو الحانوت .. جانب الحانوت..

.. تساقطتْ أغصانٌ كثيرةٌ، هَزَّهَا الزلزال.. غُصنٌ واحدٌ فقط انغرس في الأرض.. لم يَأْبَهْ إليه أحد..

.. وأخيراً .. خَارَتْ قواها.. انهارتْ.. سقطتْ على الجانبِ الذي أرادوه لها.. التقت عجائزُ ألواحِ الحانوتِ بعجائزِ أغصانِ الشجرةِ لأوّل مَرَّةٍ في عناقٍ طويلٍ.. وأخيراً.. وسُحِبَتِ الشجرةُ وما عَلِقَ بِهَا من بقايا الحانوت إلى خارجِ الميدان.. كان صوتُ احتكاكها بالأرضِ يُشْبِهُ الحَشْرَجَاتِ الأخيرةَ .. للمحتضر..

***

هامش أخير:-

«حين سقطت أمطارُ أوّل الشتاء، سالتْ المياهُ فوق التشكيل الجمالي الذي يَتَوَسَّطُ الميدانَ، حاملةً معها كلَّ ما لَقِيَتْهُ في طريقها من ذَرّاتِ الترابِ العالقةِ به، ثم تركتها بين ثَنَايَاهُ العديدةِ، بعد أنْ امتزجتْ بها وحَوَّلَتْهَا إلى طينٍ متماسكٍ، استكانَ في مكانِهِ الجديد..

.. أما الغصنُ الصغيرُ .. فما إنْ وصلتْ إليهِ أولى القطراتِ، حتى انْتَفَضَ .. وَدَبَّتْ في عروقه الحياةُ الكامنةُ، التي تَمَثَّلَتْ في بضعِ ورياقاتٍ صغيرةٍ، تُوْشِكُ أنْ تخرجَ من براعمها الخضراء، التي انتشرتْ هنا وهناك.. على جِسْمِهِ النحيل..».

***

خرج يبحث -في صباح اليوم التالي- عن عملٍ جديدٍ .. أكَّدَ لزوجِهِ التي جاهدتْ لإخفاءِ آلامِ المخاضِ، أنَّه لنْ يَتَغَيَّبَ أكثر من بضعِ دقائقَ، يستفسرُ خلالها عن عملٍ ما، دَلَّهُ عليه بالأمسِ أحدُ الجيرانِ الطَّيِّبِيْنَ.. شَيَّعَتْهُ بابتسامةٍ ودُعَاء..

.. هَرْوَلَ مُسْرِعاً إلى العنوان.. استفسرَ عن العملِ.. عَلِمَ أنَّ غَيْرَهُ قد سبقه إليه.. حمد الله تعالى وَحَوْقَلَ، ثم بادر بالعودة.. إنَّ روحَ الفقرِ تحيا في بعضِ الأجسادِ مثلما تحيا في بعضها الآخر روحُ الغنى.. إنَّ أحداً لن يموتَ قبل أن يستوفيَ أجلَه المرسوم- فقيراً كان أمْ غنيّاً- .. فلتكنْ إذنْ مَشِيئَةُ الله تعالى، ولْيَنْتَظِرْ يوماً آخر.. بَلَغَ البيت .. طرقَ سَمْعَهُ صراخٌ أعْقَبَتْهُ زغرودة.. استبشر خيراً .. هَرْوَلَ مسرعاً إلى الداخل.. خرجت إليه القابلة مُتَهَلِّلَةً: مُبَارَكٌ عليكَ عَطِيَّةُ الله..رُزِقْتَ وَلَداً .. لم يُصَدِّقْ أذنيه.. ثم ثَابَ إلى رُشْدِه.. شعر بنوعٍ من الخِفَّةِ تَسْرِي في بَدَنِهِ كُلِّه.. سجدلله شكراً .. الخلقُ والرزقُ صِنْوَان.. وهذا أوّلُ الغَيْث... مَنَعَتْهُ القابلةُ من الدخول على زوجِهِ في هذا الوقت.. انْتَبَهَ إلى ابْنَتَيْهِ تقفانِ إلى جواره.. احتضَنَهما وقَبَّلَهُما.. ثم تَطَلَّعَ إلى ساعته.. ما يزال الوقت ضحى.. خَاطِرَةٌ ما تُلِحُّ عليه.. انْطَلَقَ من فورِهِ إلى الخارج..

تطلع إليه موظف السجل المدني باستغراب وأمام إصراره حرك كلمة وكتب

***

.. تَطَلَّعَ إليْهِ مُوَظَّفُ السجلِّ المدنيِّ بدهشة.. ليسَ هناكَ حجرٌ على الأسماء، بيدَ أنَّهُ شعر ببعض الخوف، بينما كان يستعيدُ الشابُّ الواقفُ أمامه اسم مولوده.. انتابته الرغْشَةُ.. ثم عاد فتمالك نفسه.. سَيْطَرَ على اهتزازِ يَدِه.. دَوَّنَ الإسم بخطٍّ واضح..

***

.. كان ما يزالُ على وجهها بعضُ أمارات الإجهاد.. قَبَّلَهَا بين عينيها وهَنَّأَهَا بالسلامةِ .. رَفَعَتْ إليه الوليدَ الباكي، فاحتضنهُ بشيءٍ من الأناةِ، ثم قَبَّلَهُ بين عينيه، وشَرَعَ يُؤَذِّنُ للصلاةِ في أُذُنِهِ اليمنى.. سَأَلَتْهُ باسِمَةً: ماذا سندعوه؟.. أجَابَهَا بعد أن انتهى من الأذان: لقد أسْمَيْتُهُ بالفعل..، ثم شَرَعَ يقيمُ الصلاةَ في أذنه اليسرى .. ارتسمتْ على وجهها علامات الحيرة.. ألَحَّ عليها الفضول.. لكنَّها تَحَلَّتْ بالصبر حتى يفرغ .. بادَرَهَا قل أن تنطق: خُذِي .. احلِي عَنِّي «شِبْلَ سَيْف الإسلام».

***

دراسة تطبيقية

رياحين الطفولة

في ديوان

غرِّد يا شبل الإسلام

بقلم: محمد شلاّل الحناحنة

يدخلنا شاعرنا الإسلامي محمود مفلح إلى عالم الطفولة الحقّة، تلك الطفولة البريئة، لا الطفولة التي أغرقتها وسائل الإعلام الغربي بمستنقع الرذيلة والجريمة، حتى انتقلت العدوى إلى بعض مؤسساتنا الثقافيّة العربيّة!

وها نحن أولاء نصافح في ديوان «غرِّد يا شبل الإسلام» تلك القلوب المؤمنة المعطّرة برحيق الكتاب، المتوثّبة لغد واعد، يقول شاعرنا في نشيده الأوّل «أشبال حطين»:

(هتف التاريخ بنا قولوا إنّا أشبالك حطين
الفجر الآتي يرقبنا إيمانٌ، عزمٌ ويقين)

هذا النشيد الأوّل لأطفال فلسطين، أطفال الأقصى الذين صنعوا بحجارتهم ومشاعرهم الغاضبة أمجاداً بعد أمجاد حتّى أعلن العدوّ المحتلّ اليهوديّ أنّ القضاء على الانتفاضة سيكلّفه ثمناً باهظاً من وجوهٍ كثيرة!

ونراه يدعو «أشبال فلسطين» لمعانقة الفجر المضيء بالإيمان والعزم واليقين، فلا فجر بمعزل عن الإيمان، وهنا يرتكز في دعوته على تاريخنا الإسلاميّ الأصيل، يقطف من حدائقه باقات معطّرة من البطولة والمجد، وكلّ ذلك يكون بظلّ الراية الخضراء، راية القرآن الكريم:

بالجدّ وبالعلم الباني سنحقّق حلم الأوطان
ستعود الراية خافقة خضراء بظل القرآن

ويمضي الشاعر ينشد لهؤلاء الأطفال (الكبار) أو ينشدون له، فلا فرق حين يصبح الحلم الطفوليّ اقتناص دبّابةٍ أو جندِيٍّ من المحتلين بحجرٍ أو زجاجة حارقة في القدس أرض الإسراء:

قدسي يا أرض الإسراء يا ثأراً يجري بدمائي
سنهبّ نهبّ إلى الأقصى في عزم حرّ ومضاء(١)

هكذا ينفض هذا الشعر الإسلامي غبار الهزائم ليبثّ في نفوس أطفالنا عشق الحريّة والجهاد، ولنا في رسولنا ﷺ الأسوة الحسنة حيث كان يجيز بعض الشباب الصغار للاشتراك في غزواته عليه السلام، وكان يُحزِنُ هؤلاء الصغار الذين يتسابقون للجهاد أن يُردوا عن المعارك، ففي غزوة أحدٍ ردّ ﷺ أسامة بن زيد، والبراء بن عازب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمر وذلك لصغر سنّهم. بينما أجاز سمرة بن جندب، ورافع بن خديج(٢).

وفي نشيده الثاني «غرّد يا شبل الإيمان» يرسم صورة صادقة للطفل المسلم، الطفل الذي ينبغي أن نربّيه على مائدة القرآن لا الطفل الذي نسلبه هويّته الإسلاميّة بأفلام «الرسوم المتحركة» المضلّلة الزائفة، والبرامج المشبوهة التي تلغي اعتزازه بدينه وتاريخه العريق، ونجده في هذا النشيد يخاطب الطفل بأسلوب بسيط يعتمد على ألفاظ سهلة، ووزن سريع متدفّق، وهو البحر المتدارك:

غرّد يا شبل الإيمان واصدح واصدح بالقرآنْ
فيه الحق وفيه النور وفيه اللؤلؤ والمرجانْ
غرّد يا شبل الإيمان
اتلُ السطر وراء السطر فالقرآن ربيع العمر
والقرآن شفاء الصدر فيه الرحمة والغفران
غرّد يا شبل الإيمانْ

إنّ المنهل الشعري عند محمود مفلح في هذه الأناشيد، وفي شعره كله هو القرآن الكريم والسنّة النبويّة الشريفة، فهما معين لا ينضب لأفكاره، ومعانيه وألفاظه ويمكن ملاحظة ذلك جليّاً في قوله «فالقرآن ربيع العمر» وقوله «والقرآن شفاء الصدر: فيه الرحمة والغفران» وهذا استرشاد واضح لقوله تعالى «وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين» وما أحوجنا أن نحاور أطفالنا من خلال كتاب الله، نعظهمْ بالكلمة الطيّبة والأسلوب الرقيق:

لا تهجرْ أبداً قرآنكْ تطرد يا ولدي شيطانكْ
واجعله دوماً بستانك وانعم في هذا البستان
غرّد يا شبل الإيمان
اتلُ المصحفَ فجراً عصراً تعشقْ روحك هذا السِحْرا
تلق الخير وتلق الأجرا وتُبدّدْ فيه الأحزان
غرّد يا شبل الإيمان(٣)

أما في نشيده «العيد السعيد» فنراه يجعل هذا العيد دفئاً وفرحاً من خلال أحلام الطفولة، وأشواق الصّبا. وهو يربط هذا العيد من خلال فكره النيّر بحياة أعظم واسمى من اللهو واللذّة الدنيويّة الفانية، فالإسلام أباح لعب الأطفال ولهوهم، ولكنّه وجّه هذا اللهو الوجهة الصحيحة. أمّا المرح في العيد فهو لا يخرج عن دائرة شكر الله على نعمه الكثيرة على عباده، وصلة الأرحام، ودعاء المولى جلّ وعلا أن يغفر الذنوب ويحفظ الأوطان وينشر الإسلام، لا تخرج أعيادنا عن التغنّي بأمجاد الأمّة،

والتمتّع بها وهبنا الله من بلادٍ خيّرةٍ خلاّبة. وهكذا يكون أطفالنا صغاراً في قاماتهم، كباراً في عقولهم وأهدافهم، وليس هذا مستحيلاً، ولكنّها تربية الروح على الحبّ والعطاء:

ألبسُ أغلى ثوب عندي ... يا ثوبي يا عود الندِّ
ألثمُ أمّي، ألثم جدّي ... أقطف لهما أحلى وردِ
يا ربي يا ذا الإنعام ... طهّرْ قلبي من آثامي
واحفظ يا ربّي أوطاني ... وانشر رايات الإسلام(٤)

ويتميّز شاعرنا في أناشيده بالتقاط المعاني الكبيرة من خلال الأشياء الصغيرة الموحية عند أطفالنا، لذا يصبح للقلم بين أنامل صغارنا دور عظيم متجدّد. ولا شكّ أنّ للقلم معنى أصيلاً في قرآننا، فقد خُلِقَ قبل خلق السموات والأرض، بل إنّ أوّل آياتٍ نزلت على رسولنا ﷺ حضّتهُ على القراءة والعلم، وذكرت القلم كوسيلة ضروريّة للكتابة والتعلّم، فقال تعالى: ﴿**اقرأ باسم ربّك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم، الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لمْ يعلم**﴾(٥) وإن كان القلم يصاحب أطفالنا في جدّهم ولهوهم، وتعلّمهم ولعبهم، فهو جديرٌ بعون الله أن ينير بصائرهم، ويشدّهم إلى خالقهم، ويعينهم على آخرتهم، فدعونا نستمع لشاعرنا محمود مفلح في نشيده «القلم»:

باسم الله حَملتُ القلما ... وكتبت به رقماً رقما
باسم الله رفعتُ العلما ... باسم الله حملت القيما
فاحذرْ فاحذرْ من شيطاني ... يا قلمي يا طوع بناني
لا تكتب غير الإحسان ... واصدح في حبّ الأوطان(٦)

ونقرأ لفتات هادفة معبّرة أخرى في أناشيد مثل: (الشباب المسلم، عصفوري، حقيبتي، إسلامنا، هيّا إلى الصلاة، البحر، النبع، الفجر، الربيع، أهلاً أهلاً يا رمضان، مدرستي، وغيرها).

فتصبح هذه الأناشيد عند محمود مفلح مجالاً خصباً للتأمّل في سرّ الكون وجمال الطبيعة، وتحبّبُ لأطفالنا هذا الدين وتربطهم بعراه الثابتة، وإن كان فيها متعة جماليّة متألّقة، فهي متعة تأوي إلى عظمة هذا الخالق وحكمته ولطفه ونعمائه على عباده. يقول في نشيده «النبع»:

النبعُ غزيرٌ فوّارُ ... والعشب حواليه سوار
ويظل الماء به صفواً ... مهما قذفته الأحجار
النبعُ غزيرٌ فوّار
قد قال النبع لنا يوماً ... لا أبخل أبداً بعطائي
أسقي ورداً أسقي شوكاً ... أجري حتّى للأعداءِ
لا أبخل أبداً بعطائي
شكراً لله على نعمه ... شكراً لله على كرمه
فالله تعالى رازقنا ... والله كريمٌ وهّابُ
والله كريمٌ وهّابُ(٧)

في هذا النشيد يمكن أن نقف ببساطة على جمال الصورة الشعرية في البيت الأوّل، فنبع الماء غزيرٌ فوّار، أمّا العشب فيحيطه كما يحيط السوار المعصم. لقد سخّر الله الماء ليكون حياة كلّ شيء، فقال تعالى: ﴿**وجعلنا من الماء كلّ شيءٍ حيّ**﴾ فما أعظم عطاء الله ورزقه وكرمه للإنسان الذي كثيراً ما ينسى هذه النعم.

ومن الملاحظات الجديرة بالوقوف عند الشاعر قدرته الواضحة على ربط أطفالنا بعقيدتهم، وهموم أمّتهم في أناشيده، ولو تدبّرنا أناشيد مثل «ونحييكم بالريحان، نرحّب بالحضور الأمّهات، جئتم شرفتم نادينا» لوجدنا أنها تزخر بالرقائق الايمانيّة الصادقة، ففي نشيده «ونحييكم بالريحان» نقرأ:

دراسة تطبيقية

في مدرستي في بستاني ... أهلاً أهلاً بالإخوانِ
بالحبّ الصافي نلقاكم ... ونحيّيكم بالريحان
وسنمعكم أحلى نغم ... في أصفى قول وبيّانِ
هيا نركب في زورقنا ... كي نمضي للشطّ الثاني
فالزورق يبدأ رحلته ... باسم الرحمٰن المنّانِ(٨)

وفي أناشيده الأخيرة «أناشيد الأبطال» ندخل إلى تاريخنا بكلّ رياحينه، بكلّ أمجاده وبطولاته، ندخل إلى معاركه المظفرة، ونحاور كماته الميامين، وننصت إلى سيرة أعظم بطل في التاريخ الإنسانيّ على مرّ العصور، سيرة رسول البشريّة كافّة محمد ﷺ، رسول الهدى للثقلين، رسول العقيدة الصافية، والأخلاق السامية، ونعيش كذلك في ساحات الجهاد من خلال

محمود مفلح

غرد يا شبل الإسلام

ركب من الصحابة، عمر بن الخطاب، سعد بن أبي وقّاص، خالد بن الوليد، زيد بن حارثة، صهيب الرومي، زيد بن ثابت رضوان الله عليهم. وما أروع أن نصغي مع أطفالنا لنشيده «يا رسول الهدى ﷺ»:

يا رسول الهدى وعطر الوجود ... من سجاياك لا يملّ نشيدي
يا نجيّ السماء يا مشعل النور ... ويا منبع العطاء الفريد
الصحاري على خطاك تندّت ... واكتسى رملها بكلّ الورود(٩)

وهكذا يقرأ أطفالنا من خلال هذا الديوان صفحات مشرقة من تاريخنا التليد، فليت شعراءنا يمنحون هذه البراعم النديّة مزيداً من الحبّ والتّواصل والعطاء.

الهوامش

(١) ديوان (غرّد يا شبل الإسلام) ص٨ .
(٢) الفصول في اختصار سيرة الرسول ﷺ لابن كثير، تحقيق محمد الخطراوي ومحيي الدين مستو (انظر الكتاب ص١٢٩).
(٣) ديوان (غرّد يا شبل الإسلام) ص٩ .
(٤) الديوان السابق ص ١٠ .
(٥) سورة العلق: الآية (١-٥).
(٦) انظر ديوان الشاعر ص١٤ .
(٧) الديوان السابق ص ٢١ .
(٨) الديوان السابق ص٣٦ .
(٩) الديوان السابق ص٤١ .

من مكتبة الأدب الإسلامي

النصُّ الأدبي للأطفال

تأليف : د. سعد أبو الرضا

عرض: د. أحمد زلط

يعد كتاب «النص الأدبي للأطفال .. أهدافه ومصادره وسماته .. رؤية إسلامية» للدكتور سعد أبو الرضا، أحدث عنوان يصدر في المكتبة العربية في مجال نقد أدب الطفولة، ويشتمل الكتاب بين دفتيه على بابين ومقدمة رصينة، ويضم الباب الأول ثلاثة فصول ويضم الباب الثاني نظائرها، وقد طرح المؤلف في المقدمة رؤيته الأدبية الإسلامية من وجهة نظر تأريخية ونقدية في تركيز دال وعمق ملحوظ، وقدم المؤلف في الفصل الأول من الكتاب رؤيته النظرية للأدب وللثقافة بعامة وأدب الطفل بخاصة.

يقول المؤلف في مقدمة الكتاب:

«حاولت استقصاء العلاقة بين الأدب والثقافة كمدخل لتحديد مفهوم أدب الأطفال الإسلامي، وفنونه ووسائله وغاياته، وبرغم أنها علاقة وثيقة فالأدب الإسلامي جزء أساسي في منظومة الثقافة؛ لكنه ينفرد بوسائله اللغوية التعبيرية التي تجسده، وتحقق غاياته في إثراء فكر أطفالنا وتزويدهم بخبرات تعينهم على سلامة عقيدتهم والمواجهة السوية لحياتهم».

ولقد أفاد المؤلف في إطار تصنيفه لكتابه من نتائج الدراسات السابقة في أدب الطفل مثل إسهامات د. علي الحديدي، د. نجيب الكيلاني، د. هادي الهيتي، أحمد نجيب، عبد التواب يوسف، أحمد سويلم وغيرهم، وهو تأثر لا يمحو معه شخصية الكاتب ومنهجه ورؤيته.

والباب الثاني من كتاب «النص الأدبي للأطفال» يعد أنموذجاً للدراسة الأدبية الناقدة المرجوة من نقد أنواع أدب الطفولة؛ فقد حشد له المؤلف أدواته النقدية، وخبرته الأكاديمية الأدبية، وطاقاته التذوقية في انتخاب النصوص النثرية والشعرية (ص ٧٩-١٤٤). والواقع أن الباب الثاني جمع بين التنظير المتقن والتحليل التطبيقي الصائب للنصوص التي تناولها من مثل المسرح الشعري لأحمد سويلم، ومسرحية «فراش الرسول» لمرزوق هلال، وأرى أن مجهود الناقد من تنظير مفهوم القصة أو المسرحية في أدب الطفل في ضوء التصور الإسلامي من أنفع ما كتب في بابه (ينظر ص ص ١٢٧-١٣٧)، أما الفصلة التطبيقية التي وقفت عند دراسة المؤلف لنصوص أحمد شوقي للأطفال فهي محاولة تنظر إلى شاعرية شوقي باعتباره أشهر مبدع لأدب الطفل في العصر الحديث، وإن كنت أرى -ومعي آراء عديدة- في حكايات شوقي ونصوصه للأطفال، الصعوبة والتعقيد واللغة المحلقة مما لا يناسب الأطفال، وهذا لا يمنع من دقة اختيار المؤلف لمقطوعات محدودة، وهي المقطوعات التي دخلت سياق المناهج التربوية طوال العقود الأخيرة لبساطتها وحسن إدراكها.

كما أننا نستطيع أن نلتقط الثراء الفني في كتاب «النص الأدبي للأطفال» من خلال تأمل المبحث الفرعي من الباب الأخير والخاص بقصص الخيال العلمي، الذي أمتعنا المؤلف في عرض نشأته وتطوره ومفاهيمه ومزاياه وقيمته الفنية (ينظر ص٤١٤ وما بعدها).

وبعد .. فإن كتاب «النص الأدبي للأطفال» إضافة مهمة لرصيد مكتبة الطفل العربي، وفي التأكيد على القيم والمعايير الإسلامية، التي يحملها النص الأدبي للأطفال، ولا أبالغ إذا قلت إن مكتبة أدب الطفل الأسلامي تزدان بالمؤلَّف والمؤلِّف، فقد كسب ميدان أدب الطفل المسلم ناقداً أدبياً أكاديمياً يحفل بالرؤية الإسلامية المنشودة في التربية المتكاملة لأطفال الأمة.

من مكتبة الأدب الإسلامي

الأدب الإسلامي ضرورة

تأليف: د. أحمد محمد علي (عبده زايد)

عرض: عنتر مخيمر

هذا كتاب عظيم حقاً.

كلمات قلتها لنفسي -واستقرت في وجداني وفكري- بعد أن فرغت من قراءة كتاب «الأدب الإسلامي ضرورة» للدكتور أحمد محمد علي (عبده زايد).

والكتاب يقدم للقارىء رؤية إسلامية علمية مبدعة لقضية الأدب الإسلامي، التي تعد من قضايا حياتنا الثقافية الراهنة.

يحتوي الكتاب على ثلاثة فصول:

الفصل الأول: الإسلام والإبداع العربي:

وفيه تحدث المؤلف أولاً عن الإسلام والجمال قائلاً:

الجمال في التصور الإسلامي روح سارية في الوجود، إنه ليس مظهراً خارجياً مفارقاً يظهر ويختفي، ولكنه روح تتغلغل في نسيج الوجود كله، فلا يمكن تصور هذا الوجود بدون الجمال.

والإسلام حينما وجه بصرنا إلى الجمال في هذا الوجود أراد أن نتنبه إلى هذا التناسق العجيب في حقائق الأشياء، والتناسق العجيب في ظواهرها، والتناسق البديع بين ظواهرها وحقائقها. فإذا كان الله هو الحق، والجمال صفة من صفاته فإنه سبحانه خلق هذا الوجود بالحق وجعل الجمال صفة ذاتية لا صفة عارضة مفارقة. فالوجود عامة والإنسان خاصة خلقه الله بالحق وأحسن خلقه، فجمع فيه بين الحق والحسن، والحسن هنا بلوغ الغاية في الاتفاق، ثم تحدث المؤلف عن الإسلام والإبداع، ثم تحدث عن الإسلام والكلمة، فما لا يماري فيه أحد أن نعمة البيان في الإنسان تكاد تعدل نعمة الخلق والإيجاد، وقد جمع الله بين النعمتين في قوله تعالى: ﴿الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان﴾ [سورة الرحمن: ١-٤].

فالبيان هو الذي يرفع الإنسان عن مستوى الحيوان، وقد أرسل الله رسله إلى الناس بالكلمة، وكان الأنبياء جميعاً من أهل اللسن والبيان. ولولا الكلمة لما قامت في الأرض معرفة ولا حضارة ولا نظم ولا شرائع ولا آداب ولا أخلاق ولا قوانين ولا تجارب، ولكانت صورة الإنسان الآن وحياته هي نفس صورته وحياته منذ خلق آدم وأسكن الأرض، ولما اختلف مجتمع إنساني عن مجتمع آخر كما هو الشأن في عالم الحيوان والحشرات.

ومن هنا انقسمت الكلمة إلى كلمتين جامعتين هما: كلمة الحق وكلمة الباطل، أو الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة.

وفي الفصل الثاني .. تحدث عن قضية الأدب الإسلامي، وهل هو ضرورة؟

فَبيّن أن مصطلح الأدب الإسلامي.. مصطلح محدث، لم يظهر في القرون السابقة، ولم يعرف إلا في أخريات القرن الرابع عشر الهجري، وليس معنى هذا أن مادة الأدب الإسلامي ونصوصه كانت غائبة.

ولقد تناول المؤلف بالشرح والتحليل نماذج من أعمال أدبية معاصرة تموج مضامينها بتصورات وصور فنية غريبة، ثم تساءل:

هل هناك علاقة بين هذه التصورات التي تطغى على الأعمال الأدبية وبين المجتمع الذي تكتب وتنشر فيه؟

لا بد من أن يكون الأدب الذي يكتب لهذا المجتمع وعنه معبراً عن وجدانه ومشاعره وأحاسيسه وتصوراته التي كونتها عقيدة الإسلام وشريعته وأخلاقه وآدابه ونظامه وتراثه الغزير.

ومن هنا أيضاً كانت الحاجة ماسة إلى أن يكون هناك أدب إسلامي يعبر عن الشخصية الإسلامية ويجسد تصوراتها عن الكون والحياة والإنسان في مواجهة آداب غصت بها ساحتنا الأدبية تجسد تصورات فلسفية ومذهبية وعقائدية وأيديولوجية غريبة عنا غربة كاملة.

إن الأدب الإسلامي ليس أدباً لغوياً، ولا أدباً قومياً، ولا أدباً وطنياً، وإن كان لا يتعارض مع الأدب القومي أو الأدب الوطني ما دام ذلك يتم في إطار التصور الإسلامي للوطن والقومية.

والأدب الإسلامي ليس أدباً مذهبياً وإن كان لا يعارض المذهبية التي تقوم على أصول راسخة من الكتاب والسنة.

والأدب الإسلامي ليس أدب موضوع، فقد يكون الموضوع إسلامياً صرفاً كالقرآن والوحي والهجرة والغزوات والخلافة وغيرها ولكن رؤية الأديب إذا ابتعدت عن الإسلام فإن هذا الأدب لا يكون إسلامياً. وقد يكون الموضوع موضوعاً غير إسلامي كقضية التثليث مثلاً في العقيدة النصرانية، ولكن الأديب المسلم إذا تناوله تناولاً إسلامياً فكشف حقيقته وأبعاده وتناقضه ولا معقوليته في لغة رفيعة فإن هذا الأدب يكون أدباً إسلامياً . والأدب الإسلامي أيضاً ليس أدب زمان بعينه وليس أدب مكان معين، وليس أدب طائفة بذاتها.

إن الأدب الإسلامي هو التعبيرالجميل عن الكون والحياة والإنسان من خلال تصور الإسلام للكون والحياة والإنسان، أو هو الذي يرسم الوجود من زاوية التصور الإسلامي لهذا الوجود.

والتعبير الجميل يعني أن عدم استيفاء عناصر العمل الأدبي يخرج العمل من الأدب جملة إسلامياً أو غير إسلامي.

أيضاً يرتبط الأدب بالأخلاق ارتباطاً أصيلاً، فمصطلح الأدب في اللغة العربية يحمل دلالتين: دلالة خلقية ودلالة فنية. والنظرة الموروثة للفن ترى أن الفن الصادق عمل أخلاقي، لأنه يسعى إلى صقل الحياة وتهذيبها وتوجيهها نحو الأفضل وليس الحط من قدرها. وفيما يتعلق بموقف الأدب الإسلامي من الأخلاق نجد أن العلاقة بينهما أوضح والتلازم بينهما أوثق حيث إن أخلاقية الأدب الإسلامي متفرعة عن موقف الإسلام من الكلمة وبيان خطرها وأهميتها، وعن موقف الإسلام من الإبداع، وقد تبين لنا أن الإسلام ينظر إليه على أنه طاقة ينبغي أن تكون بناءة فتتجه إلى طريق الحق والخير.

والإسلام حينما يدعو أتباعه إلى فعل الخير وقوله لا يستثني من دعوته الأدباء والشعراء، بل ربما كانوا أول من توجه الدعوة إليهم لما لهم من قدرة على البيان والبلاغ، ولما لإبداعهم من ذيوع وانتشار وتأثير وبقاء في ذاكرة التاريخ.

ولكن هل يعني هذا أن الأديب الإسلامي يتحول إلى واعظ وخطيب؟

إن الأدب الإسلامي أدب أولاً قبل أن يكون دعوة إلى الخير وحرب على الشر، والإبداع الأدبي يعتمد على الصورة والإيحاء أكثر مما يعتمد على التقرير والمخاطبة والأمر والنهي، وإن أخلاقية الأدب الإسلامي ليس فيها ما يقيد حركة الأديب، ولا ما يعوق انطلاقه، ولا ما يكبّل خياله لأن آفاق الأدب الإسلامي هي آفاق النفس البشرية بما جمعته من أعماقها من نقائض الطباع، والأخلاق والأهواء والنزعات والشهوات.. إلخ، وآفاق الكون الرحبة.

ويأتي استخدام اللغة النظيفة في الأدب الإسلامي متسقاً مع الالتزام الأخلاقي الطبيعي في هذا الأدب. بل إن اللغة العربية من قبل قد وصلت إلى هذا السمو اللغوي باستعمال الكنايات عما يستقبح ذكره، وهذا مما يؤكد الطبيعة الأخلاقية للأدب العربي. إن اللغة النظيفة العفيفة لا يرى الناس حرجاً في سماعها ولا في ترديدها، لأنه ليس فيها ما يخدش الحياء، مع أنها تعبر عن أمور لها خصوصية معينة. وللقرآن الكريم المثل الأعلى في استخدام الألفاظ النظيفة والأساليب الرفيعة.

أدب الأطفال في الهند

بين النظرية والتطبيق

محسن عثماني الندوي

إنّ تربية الأطفال من ناحية فكرية موضوع مهم جداً، وقد اعتنت به الآداب العالمية من أي لغة كانت. ومن هنا لا بد من إعداد مواد تربوية لتثقيف عقولهم، وتهذيب أفكارهم، مع مراعاة نفسياتهم واتجاهاتهم الذهنية، مما يروي ظمأهم، ويشفي غلتهم، ويهذب حياتهم وأخلاقهم، ويساعدهم على أن يكونوا نواة صالحة، لرجل مؤمن، ومواطن شريف، وإنسان مثقف. والمعلوم أن الأطفال يتأثرون بالبيئة التي يعيشون فيها، والأساليب التي يعيشها كبارهم، وأبناء جيلهم، وأنهم قد يحلمون أحلاماً رائعة، تطير بهم إلى دنيا الخيال، وقد تؤثر في حياتهم قصة خيالية، أو حكاية أسطورية، وتتغير أذواقهم وأشواقهم بمرور الوقت والزمان؛ فيحتاجون في مراحل حياتهم المتقدمة إلى مواد أدبية أخرى؛ لتهدئة حماسهم، أو كبح جماحهم.

وقد يشتمل أدب الأطفال على الآداب التي لا تعد خصيصاً لهم؛ ولكنه يبحث موضوعات تتعلق بهم، وبتربيتهم وتثقيفهم؛ فيدخل هذا النوع من الأدب في قسم أدب الأطفال، كما يتضمن هذا الأدب الكتب المنهجية أو الدراسية التي يدرسونها في مدارسهم.

خصائص أدب الأطفال ومميزاته

١ - من أهم مميزات أدب الأطفال إثارة الاستغراب والتحير، الذي قد يؤدي إلى أسئلة مثل: «ماذا» و «لماذا» و«متى»؟ وينظر الطفل إلى كل شيء بنظر الاستعجاب، ويحرص على معلومات وافية عما يقرؤه من القصة والحكاية، وإن حب الاستطلاع والشغفَ بالمعرفة، وكشف القناع من طبيعة الطفل، ومن هنا يتحتم إعداد أدب الأطفال بما يلائم طبيعتهم وسنّهم.

٢ - ولا بد أن يكون أدب الأطفال مبنياً على الأخلاق الفاضلة، والمعلومات المفيدة، والأهداف السامية للحياة، بحيث يشجعهم على احتذاء النماذج الإسلامية، والسير على منوال حياة الصالحين والعلماء، ويحثّهم على مواجهة التيار الفاسد بكل عزم أكيد. ومن هذه الناحية لا ينبغي أن يُختار لأدب الأطفال أسلوب النصح، والتعليم المباشر، بل ينبغي أن يكون في صورة حكايات، وقصص لا يفوتها الجمال الفني، والأسلوب السائغ الشائق.

٣ - وقد تزداد قوة التخيل للطفل، وخاصة في مرحلته الابتدائية والثانوية، مما يُدخل في نفسه سروراً وبهجة، ولذا فإنه من الضروري أن يكون أدبهم المنظوم والمنثور مما يثير التخيل، ويزيد فيهم قوة الفكر، ويوفر لهم فرصة إبداء هذه القوة الفكرية بكل حرية.

٤ - ولا بد لأدب الأطفال أن يتضمن شعراً ونثراً وقصة، تثير في نفوسهم أهمية الصحة والنظافة والنزهة، ويحبب إليهم الدراسة وتحمل المشاق في سبيل العلم، والجد في حصوله.

٥ - وناحية مهمة أخرى، هي أن يكون لأدب الأطفال أسلوب سهل سائغ ميسور، ولغة بسيطة، وكلمات يستعملها الطفل، أو يسمعها في حياته اليومية. ومن الأفضل أن تختلف الأساليب باختلاف سنه ومراحله التعليمية. وإذا كان أسلوب الكتابة شائقاً، يجتذب الأطفال ويرغّبهم في الكتابة والقراءة، فإنهم سيهضمون المواد الموجودة في الكتب في أصناف الأمثلة والشعر والقصص والحكايات.

٦ - كما أن للمعتقدات الدينية، والتعاليم الإسلامية، أهميةً خاصة في أدب الأطفال؛ ولذا فإنه من الضروري أن يُذكر للأطفال صفات الله تعالى، وأحكامه، وتعاليمه، وسيرة الأنبياء والشهداء والصالحين؛ حتى يرتسم ذلك كله في نفوسهم، ولقد قالوا «إن التعليم في الصغر كالنقش على الحجر» ولأن هذا يساعد في تكوين أخلاقهم، وتثقيف عقولهم، وتهذيب حياتهم، وتصحيح مسيرتهم. وإن ما يتلقاه الطفل في هذه المرحلة يبقى مدى حياته، فصدره كجهاز الاستقبال اللاقط، الذي يرتبط كل الارتباط بما يُرسل إليه من الخارج، فإذا جاءه شيء في ذلك تمكن فيه كل التمكن، وثبت معه غاية الثبات.

موضوعات أدب الأطفال

ثم إن هناك مشكلة أخرى، وهي اختيار الموضوعات لأدب الأطفال؛ فإن الطفل معتاد على أن يقرأ أو يطالع كل ما هو في متناول يده، وإنه لا يستطيع أن يختار ما يفيده، وينصرف عما لا ينفعه، وليس له فرصة الفكر، وصلاحية التأني والتروي، والتمييز والاختيار. ولكن الكاتب يجب أن يميز بين صحيح وسقيم، وحلال وحرام، ونافع وضار، وقيم وتافه. ويجب أن يعرف اتجاهات الأطفال، وميولهم ونفسياتهم؛ فيختار من الموضوعات ما يلائم طبيعته ومستواه الذهني، ومن هذه الناحية فإن الكاتب مطالب باختيار موضوعات توفر لهم سير الأبطال من التاريخ الإسلامي، والمجددين من الأمة، الذين تحملوا من المصائب والمتاعب في سبيل الحق، بكل بسالة وجراءة، ونشر رسالتهم، وتبليغ دعوتهم، وتحريرهم الإنسان من عبادة الإنسان، وتخليصهم إياه من حبال الأباطيل، ومن الظلم والاستبداد. ويقول بعض الكتاب الأفاضل إن الأطفال يفضلون الكتب التي تدلهم على الصدق والإخلاص والفداء، ونصرة الحق وهزيمة الباطل.

إسماعيل ميرتهي

وإذا سرحنا الطرف إلى سماء أدب الأطفال المسلمين في الهند، وجدنا كتباً ومجلات تجمع بين النافع والضار، والغث والسمين، فهناك بعض الكتاب المعروفين باتجاهاتهم اليسارية والشيوعية، ألّفوا قصصاً وروايات للأطفال، بثوا فيها نظريات

فاسدة، ولكن هناك أيضاً كتاب غيارى على الإسلام قدموا أدب الأطفال الصالح.

ومن أبرز الكتاب الذين قدموا أدباً صالحاً لأطفال المسلمين في الهند، يملأ الفراغ، ويسد النقص، في هذا المضمار، الكاتب المعروف إسماعيل ميرتهي ولا يزال هذا الأديب موضع احترام وشرف في دنيا الأدب، وكان كاتباً وشاعراً يختار مواضيع مناسبة، وقد ترك ذخيرة كبيرة، ومجموعة نافعة من كتب الأطفال. برغم أنه كان قد كتب في موضوعات جادة، في السيرة والتاريخ، والأدب والثقافة للكبار، ولكن الذي رفع اسمه وذكره إلى أعلى القمة هو كتاباته التي تأتي في ضمن أدب الأطفال من نثره وشعره، وقد مر على كتاباته قرن كامل، ولكنها لم تفقد حتى الآن شعبيتها وأهميتها في دنيا الأطفال، وكثير من كتبه تدرس حتى الآن في المدارس. وهكذا سد نقصاً وملأ فراغاً في الأدب الأردي، وكثير من حكاياته وقصصه ابتدعها من نفسه، وابتكرها ابتكاراً، ولكن جزءاً منها قد ترجمه المؤلف من الانكليزية والفارسية والعربية، وتمتاز تلك الحكايات والقصص بصبغتها الأخلاقية والدينية، وفيها ما يهذب أخلاق الطفل، ويقوي صلته بدينه ومعتقداته، كما أورد في كتاباته سير الأبطال، والشخصيات الدينية، مما يغرس في نفوس الأطفال حباً للدين الإسلامي، وصلة بعصره الذهبي، بدون أن يقلل أهمية علاقتهم بالوطن، ورغبتهم في الوحدة والوئام.

وشعر إسماعيل الميرتهي يتصف بالأسلوب السهل، والطريقة المثيرة، وكثير من قصائده تتضمن حكايات مثيرة نافعة، مثل «بارش كابهلا قطرة» (أول قطرة للمطر) «جكنو أور بجة» (يراعة وطفل) «ملمّع كي أنكوتهي» (الخاتم المزيف) «دال كي فرياد» (استغاثة العدس) ويذكر الشاعر في هذه القصيدة الأخيرة على لسان العدس كيفية وصوله إلى المائدة، وتاريخ نشوئه، وتقلبات حياته، ومحنه وآلامه. ومما يجدر بالذكر أن رئيس رابطة الأدب الإسلامي العالمية سماحة الأستاذ الشيخ أبو الحسن الندوي حفظه الله كتب حكاية مثيرة جداً في كتابه المنهجي للأطفال «القراءة الراشدة» بعنوان «كسرة من الخبز» وهي تسرد قصة حياتها منذ كانت حَبّاً بُذر في الحقل، ثم أصبح غرساً، مروراً بمراحل حياتها المختلفة، حتى تحولت إلى خبز، على مائدة الطعام. والغرض من مثل هذه الحكاية إثارة شعور

محمد اقبال

وإحساس في نفوس الأطفال نحو نعم الله تعالى وكرمه وإحسانه، الذي يحيط بحياته، وتتجلى مظاهره في جميع مراحلها وعهودها؛ ليشكروا الله من صميم القلب، ولا يعيشوا في غفلة من الذكر، حسب قول الشاعر الفارسي.

أبرو بادو مه وخورشيد وفلك فركارند
كه توناني بكف آرى وبغفلت نه خوري

يعني أن الشمس والسماء والسحب والرياح قامت بدورها، وأدت أعمالها كاملة غير منقوصة، لتأخذ كسرة من الخبز، ولا تأكلها في غفلة.

وإن في هذا ادراكاً لهذه الآية الكريمة: ﴿**فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأبّاً متاعاً لكم ولأنعامكم**﴾.

شعر محمد إقبال للأطفال

وعندما نستعرض أدب الأطفال في القرن العشرين في الهند، فتتركز عيوننا على ما كتبه الشاعر الإسلامي الكبير الدكتور محمد إقبال لأطفال أمته وأبناء جيله. ومن مميزات شعر إقبال للأطفال الأسلوب السهل، مع الجمال الفني المثير، وإيراد الأمثلة البسيطة، والنتائج الحتمية التي يتوصل إليها ذهن الأطفال بسهولة. وكان الشاعر محمد إقبال يعتني بأدب الأطفال، وتثقيفهم وتهذيبهم، وتربيتهم تربية إسلامية صالحة؛ حتى يتحول الطفل إلى إنسان صالح، يعبد ربه، ويخدم عباده، لا يفوته جانب الصدق والعدل، ولا تأخذه لومة لائم في إحقاق الحق وإبطال الباطل، يتعاطف مع أبناء جنسه بدون تمييز، لا تشوبه شائبة من الكبرياء والتعنت والعجب، يعرف حق من أحسن إليه، ويساعد من يحتاج إلى مساعدته، ويعين الضعفاء، ويستضيف الغرباء. نزيهاً من كل شر، وخالياً من كل عيب، إلا ما يميز بينه وبين الملائكة. ومن أهم قصائده التي تتجلى فيها تلك الميزات بكمالها وجمالها:

عنكبوت وذباب - جبل وسنجاب - بقرة وغنم - دعاء الطفل - التعاطف - طائر ويراعة - استغاثة الطير - نشيد الأطفال الهنود.

كل هذه القصائد يضمها كتابه الذي سماه «بانك درا» (صوت الجرس) وبعضها مأخوذة من آداب اللغات الأخرى.

والقصيدة التي نظمها إقبال على لسان طفل بعنوان «بجه كى دعاء» نالت شعبية كبيرة، وقبولاً عاماً، جيلاً بعد جيل.

وهذه ترجمة للقصيدة:

دعاء طفل

«تتردد أمنيتي على شفتي بأسلوب الدعاء والتضرع إلى الله أن يجعل حياتي سراجاً منيراً، وشمعة لامعة وضاءة، تزيل الظلام الحالك الذي يسود العالم، وأن يستنير كلُّ مكان من لمعاني ويزدان وطني بوجودي فيه مثلما يزدان البستان ويتجمل من الورود والأزاهير والرياحين. ويكون جل همي مساعدة الفقراء وحب الضعفاء. وأنقذني يا رب من كل شر واهدني سواء السبيل والصراط المستقيم».

مساهمة ندوة العلماء في حقل أدب الأطفال

واجبٌ عليَّ أن أذكر الخدمات الجلى التي أسدتها ندوة العلماء، ورجالها العاملون، في حقل التعليم، وتربية النشء الجديد، تربية إسلامية صالحة. وأول من رفع راية الأدب منهم هو العلامة سيد سليمان الندوي رحمه الله، الأمين العام الأسبق لندوة العلماء، ورئيس دار المصنفين فقد أعد كتاباً بعنوان «رحمت عالم» في السيرة النبوية للأطفال باللغة الأردية، بأسلوب سهل جذابٌ يُحبّب إلى الأطفال شخصية رسول الله ﷺ؛ ليكون

للشيخ أبي الحسن الندوي
إنجازاته المهمة في أدب الأطفال

ذلك غرساً صالحاً في قلوب النشء الجديد، وأساساً متيناً لتربيتهم الدينية، وكذلك كتب العلامة سيد عبد الحي الحسني صاحب «نزهة الخواطر» كتاباً للطلبة باسم تهذيب الأخلاق. وقام رجال ندوة العلماء باعداد مكتبة للأطفال تغنيهم عن قراءة قصص خرافية، وحكايات أسطورية، وأهمها سلسلة «القراءة الراشدة» و«قصص النبيين» في أجزاء متعددة. وتتضمن هذه السلسلة كتباً في قواعد النحو والصرف والإنشاء، ألفها أساتذة دار العلوم ندوة العلماء. فهذا كتاب «القراءة الراشدة» لسماحة الأستاذ أبي الحسن علي الندوي، ألف لتعليم اللغة العربية، في المدارس الإسلامية، تضم حكايات تغذي عقول الأطفال، وتصبغها بصبغة إسلامية، وترسخ فيها الاعتزاز بأمجاد التاريخ الإسلامي، وبطولته الخالدة، فإن الأطفال من خلال دروس الكتاب يتعلمون اللغة العربية، ويتملكون ناصية البيان، ويتثقفون في نفس الوقت بالثقافة الإسلامية. وعلى سبيل المثال يضم هذا الكتاب درساً بعنوان «سفينة على البر»، سرد المؤلف فيه قصة فتح القسطنطينية، وقد بدأ مؤلف هذه القصة بأسلوب جذاب، يخلق الحيرة والاستغراب، ويلائم نفسية الأطفال، فسأل في مطلعها:

«هل سمعت بسفينة تسير على البر؟ وهل تصدق إذا أخبرك به أحد؟».

أظنك تقول -ولك الحق- «ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين، ولكن محمد الثاني العثماني فاتح القسطنطينية سيَّر سبعين سفينة على البر. وهل تعرف كيف كان ذلك؟».

وبعد ذلك قصّ المؤلف القصة للأطفال، بأسلوب مؤثّر ومثير، إن العرب غزوا القسطنطينية العظمى ست مرات، ولم يفتحوها، وقد قدر الله أن يكون هذا الفتح العظيم بيد شاب مسلم، من آل عثمان، وهو في الرابعة والعشرين من عمره، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

زحف محمد إلى القسطنطينية، وأعدّ لذلك عدة عظيمة، فقد قال الله تعالى: ﴿وأعِدوا لهم ما استطعتم من قوة﴾.

فكان تحت قيادته ثلاث مائة ألف مقاتل، ومعه مدفعية هائلة، فيها مدفع لا يوجد في أوروبا أضخم منه، أعده لذلك. مرماه أكثر من ميل، وكان أسطوله مركباً من مائة سفينة حربية، وكان محمد يعرف: أن العدو قد سلسل خليج قرن الذهب: وهو مدخل القسطنطينية بالسلاسل، فيكف يعبره بأسطوله؟.

فكر محمد، ولم يعجز، ولم ييأس، ووجد حيلة؛ رأى أنه يمكن العبور إلى القسطنطينية من جهة قاسم باشا، ولكن هذه الجهة بعيدة عن سفنه، فمن يحملها؟ ومن ينقلها من هذه الجهة إلى تلك الجهة والمسافة بعيدة؟.

فكر محمد ولم يعجز ولم ييأس ووجد حيلة. طلى الأخشاب بالشحم فلما أملست ازلق عليها السفن وهي سبعون سفينة.

جهود كبيرة في بلادنا لإنقاذ أطفالنا من أشواك التحديث

وما راع أهل القسطنطينية إلا وسفن المسلمين قد رست على ساحل القسطنطينية، وسُقط في أيديهم.

وهكذا أخذ محمد القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية، وسقطت عاصمة النصرانية المنيعة أمام قائد مسلم شاب.

ولا تزال هذه المدينة العظيمة وتركيا في يد المسلمين من سنة ٨٥٣هـ يوم فتحها محمد مراد إلى يومنا هذا (ولله الأمر من قبل ومن بعد). وكتاب سماحة الشيخ الندوي الآخر الذي نال أكبر إعجاب وقبول لدى الأوساط العلمية، ودوائر التربية، هو «قصص النبيين للأطفال» ويقول الداعية الأستاذ سيد قطب الشهيد في هذا الكتاب:

«لقد قرأت الكثير من كتب الأطفال، بما في ذلك قصص الأنبياء عليهم الصلوات والسلام، وشاركت في تأليف مجموعة «القصص الديني للأطفال» في مصر، مأخوذاً كذلك من القرآن الكريم، ولكني أشهد في غير مجاملة، أن عمل السيد أبي الحسن في هذه القصة التي بين يدي جاء أكمل من هذا كله، وذلك بما احتوى من توجيهات دقيقة، وإيضاحات كاشفة، لمرامي القصة وحوادثها ومواقفها، ومن تعليقات داخلة في ثنايا القصة ، ولكنها توحي بحقائق إيمانية ذات خطر، حين تستقر في قلوب الصغار والكبار».

ويقول فضيلة الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي عن سلسلة هذا الكتاب:

«إنها طرائف إسلامية يتحف بها السيد أبو الحسن الأشبال الناشئين، من أبناء المسلمين، فيجدون فيها غذاء العقول، وضياء الألباب، وقد يكون من حق هذه السلسلة على الكبار أن يقرؤوها، وخاصة الذين لم يكن لهم عهد بالقصص القرآني، فهي تعطيهم صوراً ناصعة وواضحة ومؤثرة عن حوادث التاريخ، وأيام الأنبياء، وقد يكون من حق هذه السلسلة أن ينظر إليها رجال التربية والتعليم في بلاد المسلمين هنا وهناك، فقد يجدون فيها ما يصلح تقديمه إلى أطفالهم، الذين يعتمدون في أغلب قراءتهم الأولى على زاد أدبي قصصي لا تتوافر فيه الصبغة الإسلامية المسيطرة.

«وقد يكون من حق هذه السلسلة أخيراً على رجال الفكر والبيان أن تثير فيهم الرغبة في الاحتذاء والاقتداء فيُخرجوا للناشئة المسلمة ألواناً شتى من القصص المؤمنة الصادقة، المشوقة، ويكون أبو الحسن قد سن سنة حسنة له أجرها وأجر من عمل بها، وسيكون لكل عامل نصيبه من الثواب والأجر لا ينقص منه شيء ﴿إنا لا نُضيع أجر من أحسن عملاً﴾.

خدمات الجماعة الإسلامية

ويوجد كتّاب آخرون في الهند، مثل شفيع الدين نير، وحسين حسّان ندوي ألّفوا كتباً للأطفال، وقد يمتاز رجال الجماعة الإسلامية في الشعور بالمسؤولية، وإخراج الكتب للأجيال الناشئة، فألفوا كتباً بلغة أردو لغرس العقائد الإسلامية فيهم، وأصدروا مجلات خاصة للأطفال، مثل «الحسنات» «ونور»، «وجنت كا بهول»، وهي للأطفال الذين يتعلمون في المدارس الإنكليزية والحكومية، وتنتشر في طريقهم أشواك الحضارة الغربية، أو الديانة الهندوسية، ومن أبرز كتّاب الجماعة الإسلامية للأطفال أبو سليم عبد الحي، ومائل خير أبادي وأبو المجاهد زاهد.